مسابقة الفلسفة لطلاب السنة التوجيهية (٤) :

(١) غاية الأخلاق عند أرسطو

للأستاذ كمال دسوقي

ويعود أرسطو منذ مطلع الباب الرابع إلى ما كان بسبيله قبل نقد المثل الأفلاطونية ، فبعد الهدم البناء ، وبعد التجريح التصحيح ، وهنا يعود أرسطو إيجابياً كما كان ، فيقرر ما سبق أن انتهى إليه في الفصلين الأولين من أن لكل فن خيره الخاص وفقاً لغايته التي يرمي إليها بكل وسائله ، وأن الخير الأعلى هو ما كان أكثرها كمالاً ونهائية ... أي الذي يبحث عنه لذاته لا لأجل خير آخر ، وهو ... في كلمة واحدة — السعادة ... فان كافة الخيرات الجزئية كالعلم والفضيلة واللذة والشرف لا تبغى إلا من أجلها ، كما أن السعادة لا تكون إلا بواحدة أو أكثر من هذه خصوصاً وقد بينا أن الانسان حيوان اجتماعي لا يعيش منعزلا ، ولا يحيا لنفسه بقدر ما يحيا لأسرته وأصدقائه ومواطنيه ؛ فسعادته لا تنفك عن الارتباط بسعادة هؤلاء جميعاً . والسعادة إلى جانب كونها غاية قصوى تطلب لذاتها ، وتطلب الخيرات الأخرى لأجلها ، هي كافية بذاتها Self sufficient بمعنى أنها تقوم بذاتها كفاية لا تحتاج إلى ما يحببنا فيها ، بل لأجلها بالأحرى نحب الخيرات الأخرى . وهذا ما يمنيه بالاستقلال (ف ٧ ، ٨) .

وها قد نادى بنا أرسطو إلى تحديد ماهية السعادة بالمعنى الفلسفي ، إنها تحقيق العمل الخاص بالانسان ، لا بما هو ذو وظيفة اجتماعية يكسب منها ، فان إمكان تغييرها ومزاولة غيرها تجعل الوظيفة غير ذاتية ومشخصة له ، ولا بما هو كائن حي تام أو غاد ، فتلك خصائص النبات أيضاً ، أو حساس ومتحرك بالارادة ما دام أن هذه الصفات يشترك معه فيها الحيوان . بقي أن تكون خاصة الانسان المميزة هي حياة العقل وفاعلية الفكر ، وأن تكون وظيفته الخاصة به ... بما هو إنسان ent;antvuhomme هي فعل النفس المطابق للعقل ؛ العقل الصادر عن طبيعة وملكة وسجية لا عن محض صدفة ؛ والذي هو نتيجة مران واستمرار للمزاولة المنتظمة للفعل بما يؤدي إلى حسن الأداء ؛ فان الخير أو الفضيلة عند أرسطو يريدها أن تكون ثابتة راسخة وصادرة عن ذات الكائن بسهولة ويسر لا تكلف فيه ولا تعمل ... حتى تكون فضيلة حقاً لا مجرد عمل فاضل أوحد .

ويفيدكم هنا كثيراً الرجوع إلى تقسيم أرسطو للنفس إلى نباتية وحيوانية ثم عاقلة ووظائف كل منها (في المراجع العربية التي سبق أن أشرت إليها) . كما يفيدكم جدا بل من الضروري جداً مقارنة نظرية السعادة عند أرسطو بالنظريات الأخلاقية الأخرى خصوصاً نظرية الواجب لكانت الفيلسوف الألماني (وقد أتى المترجم الفرنسي لأخلاق أرسطو على طرف منهـا) ، وكذلك نظريات فلاسفة الانجليز المحدثين في كتاب المدخل إلى الفلسفة المترجم إلى العربية والمقرر في الامتحان الشفوي (في باب النظريات الأخلاقية)

وكأن أرسطو لا يقنع بهذا التخطيط الذي وضعه للسعادة ؛ فهو يصفه بالنقص ، ويعتذر عن نقصه بأن الكمال لا سبيل إليه ؛ وأن الزمان كفيل بالعمل على إكمال وجوه النقص التي تعترى الشيء بعد اكتشافه . وهنا إيمان قوي من جانب الفيلسوف بعنصر الزمان كعامل على التطور والتقدم . وأساس الروح العلمي أن نعتقد أن ما انتهيت إليه إن هو إلا مشاركة في موكب العلم وركب الحضارة ، وأن الزمان لابد أن يغير منه بإكمال نقصه أو ربما باظهار خطئه وإدحاضه ، وأنه ليس بعد فصل الخطاب أو نهاية المطاف .

ويعود أرسطو مرة أخرى فيحشد للتدليل على صحة نظريته في الخير والسعادة أدلة مستقاة من الواقع الحي ، لأن الحقائق الواقعية عنده هي في اتفاق مع التعريف الصحيح (ب ٦ ف ١) فيكرر القسمة الثلاثية للخير التي سبق أن قال بها (ب ٢ ف ١٠)

يجعل خير النفس من هذه الخيرات كلها في القمة ، ما دام أنه مطابق للرأي الذي أجمع عليه الفلاسفة السابقون عليه ومنهم أفلاطون (ف ٢) ومطابق كذلك للمبدأ المعروف لدى اليونان من أن فضيلة الشيء إنما تكون في تحقيق وظيفته التي من أجلها وجد كالابصار للعين ، والبتر للسيف . . الخ (ف ٣) ومطابق في المقام الثالث لما يرى الناس من أن السعادة الحقة هي في حسن

السيرة وفلاح المرء (ف ٤) والنتيجة إذن أن ماقال به أرسطو كحد للسعادة يشمل كل وجهات النظر فيها سواء اقترنت بشيء من اللذة والخيرات الأخرى الضرورية كما يرى البعض أو خلت منها (ف ٥) وسيأخذ بها حتما أولئك الذين يرون أن السعادة هي الفضيلة ، أو فاعلية النفس بما يطابق الفضيلة (ف ٧) كما سبق أن قرر (ب ٤ ف ١٤)

ثم إن أرسطو يردد رغبته الملحة فى ألا يكون الخير الأعلى محدوداً أو مشروطاً بظروف خاصة أو يكون ملكة سلبية معطلة قابلة passive غير فاعلة Aetive بل يريد ، أن يكون فعلا ، وفعلا حسناً صادراً عن روح طيب وطبيعة خيرة وسجية فاضلة (ف ٨) وعنده أن مقياس الحسن فى الأشياء والأفعال أن تكون محبوبة خصوصاً لدى الذين يألفونها ويحسنون تقديرها (ف ٩) ، فإذا لم يجمع هؤلاء على الاعجاب بها ومحبتها أو اختلفوا حولها لم نكن خيرات حقة ، بل كانت أشبه بخيرات العامة من الناس الجزئية المتباينة التى ترضى هوى كل على حدة ، أما الخيرات الكلية العامة فهى إلى جانب كونها مطلقة من كل هوى ومشتركة بين الأخيار جميعاً تحمل فى طيها لذتها وقيمتها ، واللذات الأخرى ملحقة بها وثانوية بالنسبة إليها . فليس أجل ولا أكل ولا ألذ فى نظر الرجل الفاضل من أن يأتى الأعمال الفاضلة ويرى الآخرين يفعلونها أيضاً . وهذا سر إصرار أرسطو على جعل الفضيلة ملكة راسخة ثابتة فى نفس أصحابها يصدرون عنها فى كل مايفعلون أو يتذوقون من أفعال غيرهم ، وإن كان لايعدم فى نهاية الأمر (ف ١٤ ... ١٦) أن يقيم وزناً ثانوياً للخيرات الخارجية كجمال الخلقة وشرف الأسرة والثراء والأصدقاء ، بحسبانها للسعادة بمثابة الحرمان منها كلها أو بعضها لافساد الحياة السعيدة وتعكير صفوها

وقد بحث أفلاطون ومن قبله سقراط فيما إذا كانت سعادة الانسان وفضيلته يمكن أن تكتسب بالتعلم والران أو أنها فطرية موروثة يهبها الآلهة ، ويرقب أرسطو بأن يكون مرجع السعادة إلى النوع الثانى لتصبح أقدس مايكون فى حياتنا ، وان كانت لتبدو نتيجة تحصيل وجهاد للنفس طويلين ، على أن أرسطو يفضل ألا تمادى فى تقديس السعادة الى الحد الذى ننسى معه أنها ممكنة المنال لكل منا بقليل من العناية والحرية ... حتى لانسلم بأنها من عمل الصدفة والاتفاق by chance أو Par hasard خصوصاً وقد عرف السعادة من قبل بأنها فاعلية النفس بما يطابق الفضيلة ، وهل الغرض من السياسة أن تقوم على تكوين نفوس المواطنين تكويناً يؤدى بهم الى السعادة — وان الفاعلية عنده لتقترن بالسعادة اقتراناً لانستطيع معه ان نقول عن الحيوان أو الطفل أنه سعيد لخلوهما بعد من هذه الفاعلية ، وشرطها السعادة اذن هما تمام الفضيلة وكمال الحياة ، ولا يعنى أرسطو بكمال الحياة انتظار الموت للحكم بالسعادة كما يقول الشعراء ، أو الخوف والاشفاق من تقلبات الدهر وآلام الشيخوخة وحظوظ الأبناء والاحفاد — فان من هذه مايدوم حتى بعد الموت ، ولو أقنا لها وزناً فى الحياة لوجب أن تكون كذلك بعد الممات (ب ٧ ف ١٤) كما أنه من الحق عنده أن تقول عن الشخص بعد موته ، لقد كان فلان سعيداً ، ولا نملك أن تقول عنه أثناء حياته : انه سعيد ، مخافة أن تتبدل به الحال بعد ، وخشية أن يظن بالسعادة أنها شيء ثابت لايتغير ، وأن حظوظ الناس من السعادة قلب لاتستقر (ب ٨ ف ٢) وأصحابها مهددون بزوالها بما لايستطيعون دفعه أو رده من القضاء (ف ٣) — انما يريد أرسطو أن يكون للافعال الفاضلة وحدها الحكم بالسعادة (ف ٤) مادامت هى أكثر الاشياء الانسانية ثباتاً وبقاء ، وانها بالتالى أشعرها اعلاء لقدر أصحابها وهم المحظوظون الحقيقيون — الذين يتحملون بعد اذ تحلوا بها صروف العصر وأحداث الزمان بما يليق بهم من التسليم والرضا مع الكرامة والاباء ، بل ان هذه الاحداث مهما جلت ؛ أو المصائب مهما عظمت ، لن تزيد الفضيلة الا بهاء وجلاء ... اذهى محك النفس العالية الكبيرة (ف ٧) والرجل الحكيم هو الذى يواجه تقلبات الدهر دون أن يفقد شيئاً من كرامته ، بل يستفيد بها فى اسعاد نفسه رغم مافيها من شقاء (٨ ، ٩) بمعنى أن يسير على مقتضى الفضيلة الكاملة فى حدود الخيرات الخارجية اللازمة (١٠ — ١١)

ولا يستطيع أرسطو أن يدع مسألة منغصات الحياة المتعلقة بالخلف دون أن يعود إلى توكيد أهميتها فى فصل خاص بها فيقرر

أنه إذا كان ما يحدث بنا يمسنا مساً خفيفاً أو عنيفاً ؛ فطبيعي أن يكون ذلك صحيحاً بالنسبة لمن نحب — إلا أنه كما يوجد فرق بين المآسي الواقعية والقصص الدرامية الخيالية؛ كذلك يكون إحساسنا بالمصائب أقوى في الحياة منه بعد الموت . وإذا صح أن يكون للموتى إحساس بما يجد أبناؤهم من سعادة أو شقاء فلا بد أن يكون الإحساس ضعيفاً في ذاته أو بالنسبة لهم — وعلى أي حالة لا يستطيع أن يغير من سعادة الموتى أنفسهم أو شقائهم . فذلك ما يجب أن يكون لهذه المصائب من أثر علينا في حياتنا .

بعد هذا يبحث أرسطو فيما إذا كانت السعادة جديرة بالمدح والثناء أو الإعجاب والاحترام ، فيرى أن الممدوح لا يمدح لذاته بل لشيء آخر يتصف به أولى بالتقدير والحمد ؛ حتى لو كان هذا الحمد موجهاً للآلهة لما يقوم حينئذ من العلاقة بينهم وبين الذي يمدحونهم أو الأشياء التي يمدحون من أجلها ، فما هو كامل بذاته ولا علاقة له بغيره لا يمدح بل يكون موضع إعجاب وتقديس . وعلى هذا فمن الممكن أن نمدح الفضيلة لأنها تدلل فعل الخير ، أما السعادة فنحترمها ونقدرها في ذاتها لأنها مبدأ كامل وغرض أسمى لكل ما نعمل ؛ وما كان كذلك وجب احترامه وتقديسه .

وفي الفصل الختامي من الكتاب الأول يمهد أرسطو لدراسة الفضيلة التي هي موضوع الكتاب الثاني كله . فتقتضي تعريفه للسعادة بوصفها فاعلية النفس بما يطابق الفضيلة يحتم عليه دراسة هذه الفضيلة . والفضيلة هي ما يجب أن يشتغل به رجل الدولة (السياسي) الحقيق بجعل الناس فضلاء . تذكرون هنا ما سبق لأرسطو منذ الفصل الأول من ربط بين الأخلاق والسياسة ، ولكم ألا تقروه هنا على جعل مهمة السياسيين تعليم الناس الفضيلة بما لهم من سلطة القانون . على أن أرسطو حين يدرس الفضيلة الإنسانية (١١ ف ٥) وفضيلة النفس بالذات التي يجب على السياسي في نظره أن يلم بمعرفتها كما يتخصص كل امرىء في ميدان عمله (ف ٧) .

وفي بقية هذا الفصل يعرض أرسطو إلى تقسيمه الثلاثي للنفس الإنسانية إلى نباتية وحيوانية وعاقلة كما وردت في كتابه « في النفس » (l'ame) ولما كان التقسيم الأفلاطوني للملكات النفس إلى شهوية وغضبية وعاقلة . وتشبيهه لها بالعربة ذات الجوادين (الشهوة والإرادة) يقودها (العقل) . لا ينحرف بها أحد الخيل إلى يمين أو شمال (في محاورة فيدروس الجمهورية وغيرها) ... لما كان هذا التقسيم الأفلاطوني أدنى إلى بيان مهمة الأخلاق وضرورة تغليب العقل على الإرادة والشهوة — فإن أرسطو — يخالطه بتقسيمه خلطاً بيناً . ولن يعسر عليك أن تدرس النظريتين في مصادرهما وفي بعض الكتب التي عرضت لهما ، ثم أن تجمع بينهما لكي تقف على فكرة أرسطو .

ولا غنى لك — وقد فرغت من الكتاب الأول — أن تكمل معرفتك بنظرية الخير والسعادة الأرسطية بتصفح الكتاب الثاني في الفضيلة كما يراها أرسطو ، وبقراءة الكتاب العاشر والأخير من المجلد الثاني للوقوف على فكرة السعادة كما يجب أن يفهمها الفيلسوف .

كمال دسوقي

اعلان مناقصة

مصلحة الأملاك الأميرية — تعلن في المناقصة العامة عملية بناء آبار السواقي بمنطقة توزيع الملكيات الصغيرة على المعدمين بكفر سعد (التوزيع الأول) بتفتيش كفر سعد ومقره كفر سعد

والجلسة ظهر يوم الاثنين الموافق ١٣ فبراير سنة ١٩٥٠ بمقر التفتيش المذكور . — ويمكن استلام الشروط والقوائم الخاصة بها — والاطلاع فقط على الرسومات من التفتيش أو الهندسة المختصة بالتفتيش المذكور — نظير مبلغ ثلاثمائة مليم للقائمة الواحدة اعتباراً من أول فبراير سنة ١٩٥٠

٤٠٦٨